

## المعرفة عند صوفية الإسلام القشيري نموذجاً

الباحث/ حسني عطية صادق عبد الغفار

### المخلص:

يتناول هذا البحث موضوعاً من الموضوعات المركزية في الفكر الصوفي ألا وهو موضوع المعرفة عند الصوفية، وستأتي عناصر البحث في الموضوعات التالية:

- معنى المعرفة وموضوعها ودرجاتها.
- وسائل التحقق بالمعرفة.
- علاقة المعرفة بالسماع.
- القلب عند القشيري هو محل المعرفة.

والجدير بالذكر أننا سنناقش العناصر السابقة لدى الصوفية عامة، ولدى الإمام عبد الكريم القشيري بشكل خاص باعتباره من الشخصيات المركزية والمؤثرة في تاريخ التصوف الإسلامي.

### معنى المعرفة وموضوعها ودرجاتها:

المعرفة التي يُنشدُها القشيري - شأنه شأن غيره من الصوفية عامة - هي ذلك النور الذي يقذفه الله سبحانه وتعالى في قلب المؤمن، وعلامته التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو نورُ المكاشفة والمشاهدة بدرجاتها كُلُّ حسب مرتبته التي وصل إليها<sup>(١)</sup>. وهذه المعرفة يركز موضوعها على الله سبحانه وتعالى، والتوجه إليه بالكلية، فالمعرفة تتعلّق كل التعلّق بالوصول إليه تعالى ومعرفته "فمن عرف الحقّ تعالى بأسمائه وصفاته سُمِّي عارفاً"<sup>(٢)</sup>.

وينبغي على كل مسلم أعطاه الله القوّة للوصول إلى هذه المعرفة أن لا يركن إلى تسهيلاتٍ ورخص الشريعة، بل يجاهد نفسه ما دام فيه القوة حتى يصل إلى

هذه المعرفة الإلهية، ومن ينحطُّ إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال، وهو الخروج عما بقي له من معلوم أو مرسوم حال ويبقى مجردًا للواحد على حدِّ قول القشيري<sup>(٣)</sup>.

ويلاحظ أنَّ العقلَ لا مجال له لتلقي هذه المعرفة، فمعرفة تعالي لا تكون إلا به فهو يُعرِّفهم نفسه سبحانه وتعالى، ويعرفهم أوصافه والواجب في وصفه، فهذه المعرفة لا تكون إلا عن طريق تجليه تعالي لقلبهم من خلال ما يكشفهم به من أسمائه وصفاته؛ فالعقول محجوبة عن تلقي هذه المعرفة، وذلك لأنها تقف عند حد معين لا يمكنها أن تتخطاه، وهو الواجب والجائز الممتنع في ذاته<sup>(٤)</sup>.

ويرى القشيري أنَّ معرفة الله هي أول فرض افترضه الله على خلقه، ومن ثم فإن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان إحداثه، فيعرف صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث<sup>(٥)</sup>.

ميّز القشيري بين نوعين من المعرفة، معرفة في البداية أساسها خدمة العقل بكل الوسائل المتاحة، من أجل تصحيح الإيمان وتكريس العقيدة، هذا مطلب عام، أو قل: فريضة عامة واجبة على كل متدين، وبغض النظر عن ثقافته وهذا القدر المتاح تتسع دائرته لمن يقترب من العلم الديني فيشمل كل علوم النقل والعقل، وقد رأينا من سيرة القشيري كيف أعاده شيخه الدقاق إلى طلب المزيد والمزيد من هذا اللون من المعرفة عند شيوخها ومجالسها، غير أنَّ هناك نوعًا ثانيًا وهو الذي نقصده هنا، ويطلق عليه العرفان، وصاحبه العارف بالله، ولفظه بالله مقصوده تمامًا، فهو عارف لا يفضل شخصيته أو ذكائه أو عقله، بل بالله وانمحاء الشخصية هنا معناه: ذوبان إرادة هذا العارف في إرادة مولاه لكي يكون بالله.

وفى هذا يقول القشيري: "عند هذه الطائفة معرفة به- سبحانه- في الانتهاء ضرورية وفي الابتداء كسبية، وهذه وإن كانت معرفة على التحقيق، إلا أنها ليست شيئًا بالإضافة إلى المعرفة الضرورية كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها

عليه<sup>(٦)</sup>. ويميز بينهما تارة أخرى فيقول: "ضعف العقل؛ لأنه بشرط البرهان وتأمل، ثم قوة البيان في حال العرفان لأنه بسطوة الوجود"<sup>(٧)</sup>.

وبناء على ما تقدم يظهر لنا أنّ المعرفة عند القشيري نوعين: معرفة عقلية ومعرفة كشفية، وبهذا يُصبح لكل معرفة من هاتين المعرفتين منهجٌ خاص بها؛ حيث جعل المنهج الاستدلالي هو منهج المعرفة العقلية بينما المنهج الذوقي هو منهج المعرفة الذوقية، وفي هذا يقول القشيري: أما عن معرفة العوامّ فهي: معرفة أصحاب الاستدلال وأرباب العقول فتعرف إليهم بدلائل العقول فأراهم دلالات قدرته، وعلامات وجوده، وسمات ربوبيته، كما نبههم على وجود الحكمة ودلالات الوجدانية؛ من خلال ما بيّن من براهين تلطف عن العبارة، ووجوه من الدلالات التي تؤكد ذلك، فما من شخص أو طلل أو رسم أو أثر أو سماء أو فضاء، أو غيره من الدلائل التي تؤكد على وحدانيته سبحانه وتعالى، وتلك معرفة عن طريق النعم والآيات<sup>(٨)</sup>.

أما عن معرفة الخواص: فهي المعرفة التي تتم عن طريق معرفة صفاته تعالى، والتحقق بها فيحمدون الله عند شهود ما كشفوا به من صفات القدم، ولم يريدوا النظر إلى العز والكرم أو يتصفّحوا أقسام النعم، فقد ترقوا عن مشاهدة النعم والآيات إلى مشاهدة الصفات، ففرق بين من يمدحه لعزّه وجلاله، وبين من يشكره على وجود أفضاله ونعمه<sup>(٩)</sup>.

وليس من قام بمعاملة ظاهره كمن استقام في مواصلة سرائره، ولا من اقتبس من سراج علومه كمن استبصر بمعارفه، ولا من نصب بالباب من حيث الخدمة، كمن مكن من البساط من حيث القرية، وليس نعث من تكلف نفاقاً كوصف من تحقق وفاقاً، بينهما بون بعيد<sup>(١٠)</sup>.

ويتبين مما سبق أن للمعرفة عند القشيري طريقين، وهما الكسب والوهب الذين لا غنى للصوفي الذي يسعى للوصول إلى معرفة الله على الحقيقة، وهذا ما ذكره

القشيري على لسان أبي سعيد الخراز (ت ٢٧٧ هـ) حيث قال: "المعرفة تأتي من عين الجود وبذل المجهود"<sup>(١١)</sup>.

ولكن على الرغم من أنّ الجمع بين طريق الكسب والوهب في الوصول إلى معرفة الله كما يرى القشيري، إلا أنه في مواضع مختلفة من تفسيراته لبعض آيات من القرآن الكريم يؤكد أن المعرفة لا تكون إلا وهباً من الله، ذلك لأنه هو من تعرف إليه فعرفوه وأشهدهم فذلك شهدوا، فلو لم يعرفهم من هو ما عرفوه، وهو عينه ما ذهب إليه الهجويري (ت ٤٦٥ هـ) معاصره فنجده يرى أن المجاهدة ليست شرطاً أساسياً عند الصوفية أجمع، بل إنّ من بينهم من يجعل الفضل الإلهي هو السبب الموجب لنيل هذه المعرفة<sup>(١٢)</sup>.

فأهل التخصص كما قال القشيري هم من اتصفوا بالمعرفة وبخصائص الإيمان، وأيدهم تعالى بتحقيق التعريف في أسرارهم، وخصّهم بإسبال نور العناية عليهم، ومن سواهم فهم أصحاب الرد<sup>(١٣)</sup>.

ويؤكد على ذلك أيضاً من خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]

فيذهب إلى أن الإيمان لا يكون بحولٍ لنا ولا قوة، وإنما يكون بالله ويتعريف منه تعالى، فلولا أنه عرفنا من هو ما عرفنا وإلا فمتى علمنا ذلك<sup>(١٤)</sup>؟

وإذا عدنا إلى الحديث عن معرفة الخواص فنجد أنها على الرغم من أن معرفة الخواص هي معرفة عالية وذات مكانة وقيمة، إلا أن معرفة خواص الخواص أرقى وأعلى مراتب المعرفة، فهم من تعرف إليهم به عن تعريف ذاته، فهو تعريف للسادات والأكابر من خلال ذاته العالية، فأولياء بني آدم قد علموا جلال قدرته، وعرفوا نعت عزته، فشهدوا عن شهود وتعيين عن ظنون وتخمينات، بل بيقين وثقة

أنهم إن لم يدركوه اليوم حساً، فلم يظنوا به الظنون ولم تصيبهم الشكوك، فعرفوه بتعريفه إياهم له فعرفوه وشهدوا، فلو لم يقل لهم أنه هو هو لما عرفوا من هو<sup>(١٥)</sup>.

ولقد خاطبهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] فيري القشيري أن هذا الخطاب موجّه للخواص من أهل معرفته أما العوام فخاطبهم بقوله تعالى<sup>(١٦)</sup>: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]

فالعلماء عند القشيري لهم العقل، وبه يفرقون ويقيمون الدلائل والبراهين التي يُفرّقون بها بين الحق والباطل، أما العارفون ففرقانهم موهوب إليهم من الله سبحانه وتعالى - وهو نور المعرفة التي يُفرّقون بها بين الحق والباطل<sup>(١٧)</sup>.

ولأن نور المعرفة أعلى من نور العقل فالعلماء يُحتكم إليهم من قبل العوام في الأمر والنهي؛ ولكن حين يشكل شيء في الأحكام يرجعوه إلى العارفين؛ وذلك لأن الفقيه-العالم بأمور الأمر والنهي الشرعية- يوقع عن الله، أي يأخذ مما أنزله في كتابه وسنته، بينما العارف ينطق عن الله؛ أي من خلال العلم اللدني، وهو العلم الذي يحصل من لدن الله دون التكليف بالتطلب فيكون موهوب من الله دون عناء وطلب<sup>(١٨)</sup>. فالعلماء عند القشيري اكتسبوا علمهم بجهد منهم ونظر واستدلال، بينما العارفون فينور وبفضل منه تعالى وجوده- العلم- فهو بيان أضافه إلى برهانهم، أو عيان أضافه إلى بيانهم على حد قول القشيري. ويقصد بعيان أي يرى العارف بعض الغائبات كأنها أمامه وذلك كله بنور الله الذي منحه إياه<sup>(١٩)</sup>.

وقد قسّم القشيري العلماء والعارفين إلى أقسام، فالعلماء قسّمهم إلى ثلاثة أقسام: الفقيه، وهو عالم يعرف أحكام حاله وحرامه. والمحدث، وهو عالم يعلم أخباره وسنته وآثاره. والمفسر، وهو عالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ومُحكّمه وتنزيله<sup>(٢٠)</sup>.

بينما نجد القشيري يقسم العلماء في موضع آخر إلى أربعة أقسام وهم: حفاظ القرآن وأخبار الرسول، وهم الخزنة. علماء الأصول الرأون على أهل العناد وأصحاب البدع بوضع الأدلة. الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من العبادات وكيفية المعاملات. أهل المعرفة وأصحاب الحقائق، وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان<sup>(٢١)</sup>.

أمّا العارفون فقسّمهم إلى أربعة أقسام: العابد الزاهد ونعته وفاق ورهبانية، والذاكر الفاني ووصفه فناء وربانية، والعارف المرابي وهو العالم بصفاته ونعوته تعالى، والعارف الفاني وهو من لطفه الله حتى أحضره - جعله من المقربين - ثم كاشفه وأظهر له العديد من الأسرار والمشاهدات، فلم يستطع تحمّلها فقهر وفني فاسمه باقٍ، ولكن عينه محو، أي لا شعور له بمن حوله من شدة تعلقه بربه وحبّه له، فلا إدراك له عن الوجود من حوله<sup>(٢٢)</sup>.

ويذهب القشيري إلى أن المعرفة عند جماعة الصوفية هي صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته؛ ثم صدّق الله تعالى في معاملاته؛ ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته؛ ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه فحظي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله في جميع أحواله؛ وانقطع عنه هواجس نفسه؛ ولم يُصغ بقلبه إلى خاطرٍ يدعوه إلى غيره، فإذا صار من الخلق أجنبياً ومن آفات نفسه بريئاً، ومن المساكنات والملاحظات نقياً؛ ودام في السرّ مع الله تعالى مناجاته، وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثاً من قبيل الحق سبحانه بتعريف أسرارهِ فيما يجريهِ من تصاريهِ أقداره يُسمى عند ذلك عارفاً وتسمى حالته معرفة<sup>(٢٣)</sup>.

وبعد أن تعرّفنا على المعرفة وموضوعها عند القشيري وجب علينا التعرف على أقسامها عنده، ومن ثم فقد قسّمها إلى ثلاث درجات وهي كما يقول: "يعني أحاطت به سجوف<sup>(٢٤)</sup> الطلب، ولم يتجل له بعد صباح الوجود، فطلع نجم العقول

فشاهد الحقَّ بسره بنور البرهان، فقال: هذا ربي، ثم يزيد في ضيائه فطلع له قمرُ العلم فطالعه بشرط البيان. ثم أسفر الصبح وامتع النهار فطلعت شمس (العرفان) من برج شرفها فلم يبق للطلب مكانٌ، ولا للتجويز حكم، ولا للتهمة قرار؛ إذ ليس بعد العيان ريب، ولا عقب الظهور ستر<sup>(٢٥)</sup>.

ويوضّحها في موضع آخر من حيث الأنوار فيقول: "نور في البداية وهو نور العقل، ونور الوسائط هو نور العلم، ونور في النهاية هو نور العرفان، فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب العرفان في حكم العيان"<sup>(٢٦)</sup>.

ويتفق ذو النون (ت ٢٤٥هـ) مع القشيري في تقسيمه للمعرفة إلى ثلاثة أقسام: الأول حظ مشترك بين عامّة المسلمين، والثاني معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء، والثالث- وهو العلم بصفات التوحيد- خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم<sup>(٢٧)</sup>. ويذهب السهروردي البغدادي (ت ٦٣٢هـ) إلى مثل هذا التقسيم السابق للمعرفة حيث قسّمها إلى ثلاث درجات:

١- عقلية، ونورها البرهان، أو علم اليقين.

٢- قلبية، ونورها البيان، أو عين اليقين.

٣- كشفية، ونورها العرفان، أو حق اليقين.

فيقول: ".. ومنها: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فعلم اليقين ما كان من طريق النظر والاستلال، وعين اليقين: ما كان من طريق الكشف والنوال، وحق اليقين: ما كان بتحقيق الانفصال عن لوث الصلصال بورود زائد الوصال"<sup>(٢٨)</sup>.

فإذا عُدنا إلى القشيري وجدناه يُوضح درجات اليقين في موضع آخر: فيقول: "علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين، ولكن كل الأنوار تتبدد أمام شمس حق اليقين"<sup>(٢٩)</sup>.

ونستطيع الآن أن نتصور درجات المعرفة عند القشيري، وأنها بالقياس إلى بعضها البعض تشبه النجم والبدر والشمس فكل منها قوة وضياء، ولكن هذا الضياء يتلاشى إذا ما لاح ضياء الذي يليه؛ لأنه يغمّره ويغطي عليه حتى يستوعبه.

والواقع أنّ القشيري قد التزم بهذا الترتيب الثلاثي التزاماً ملحوظاً في جميع مباحثه، وفي سائر مصنّفاته، وكان في كثيرٍ من المواضع - وبخاصة في تفسيره - يُسهب في التفرقة بينهما، وتوضيح التدرج، فيما بينهما، أساس دقيق يعتمد على مظاهر الطبيعة، الأمر الذي جعل مذهبه في المعرفة واضحاً، ومستقيماً ودقيقاً.

ويهمُّنا هنا أن نتوقّف قليلاً عند الدرجة الثالثة من المعرفة، وهي: (الكشفية التي نورّها العرفان)، وموضّعها السر، وعين السر، وهما - عند القشيري - بعيدان عن آفات النفس والعقل كلّ البُعد، لهذا فإن طبيعة العرفان تختلف اختلافاً جوهرياً عن المعرفة العقلية، فأربابُ العقول يستدلّون بوجود المخلوق على الخالق، وبالمصنوع على الصانع، وبالمحدث على القديم، وبالنسبي على المطلق، أما أربابُ العرفان، فالله عندهم حاضر مشهود، فهو لا يغيّب حتى يستدلوا بشيء عليه، وهو سابق لا مسبوّق، فبه يعرفونه، أو كما يقول ذو النون (ت ٢٤٥هـ): "عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي"<sup>(٣٠)</sup>.

ويفرّق القشيري بين دليل العلماء ودليل العارفين فيقول: "ويقال: الفرق من قام بالعلم وبين من قام بالحق أنّ العلماء يعرفون الشيء أولاً، ثم يعلمون بعلمهم، وأصحاب الحق يجري عليهم بحكم التصريف شيء لا علم لهم به على التفصيل، وبعد ذلك يكشف لهم وجهه، وربما يجري على ألسنتهم شيء لا يدرون وجهه، ثم بعد فراغهم من النطق به يظهر لقلوبهم، برهام ما قالوه، ودليل ما نطقوا به من شواهد العلم"<sup>(٣١)</sup>.



ويقول في موضع آخر: "جولان تحقيق المسائل في قلوب الخواص يشغل قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة"<sup>(٣٢)</sup>.

ومن أسس مثله هذا العرفان المباشر - في نظر القشيري - عرفان موسى أن ما سمعه هو كلام الله. يقول: "علم موسى أن الحق يخاطبه، وعرف ذلك بتعريفٍ حُصِّ به من حيثُ الإلهام دون نوع من الاستدلال"<sup>(٣٣)</sup>.

وينتهز القشيري كلَّ فرصة تتاح له، ليوضِّح طبيعة هذا العرفان، وأنه لا يصاب بما تصاب به المعرفة العقلية "فليس فيه التجويز والتردد والتحير؛ فهو بأجمعه منتفٍ عن قلوبهم، وشموس العرفان طالعة على أسرارهم، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم، فلا لهم تعب الطلب، ولا عليهم سلطان الفكر، وشعاع شمس العرفان مستغرق لأنوار نجوم العلم"<sup>(٣٤)</sup>.

ويقول في موضع آخر: "الأنوار إذا تألأت في القلب نفت آثار الكلفة، فنور اليقين ينفي ظلمة الشك، ونور العلم ينفي ظلمة الجهل، ونور المعرفة ينفي أثر الفكرة، ونور المشاهدة ينفي آثار البشرية، وأنوار الجمع تنفي آثار التفرقة، وعند أنوار الحقائق تتلاشى من حيث حسابان تأثر الأعيان"<sup>(٣٥)</sup>.

يرى القشيري أن أقمار العلوم إذا أخذ هلالها في الزيادة بزيادة البراهين فإنها تزداد، ثم إذا صارت إلى التمام في العلم وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة، فالعلم يأخذ في النقصان، وتطلع شمس المعرفة، فكما أنه إذا قرب القمر من الشمس يزداد نقصانه حتى إذا قُرب من الشمس تماماً صار محاقاً، كذلك إذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم ففي النقصان لزيادة المعارف؛ كالسراج في ضوء الشمس وضياء النهار"<sup>(٣٦)</sup>.

### وسائل التحقق بالمعرفة

تتعدد وسائل المعرفة عند القشيري وتتنوع فمن أهم الوسائل التي استعان بها القشيري في طريقه إلى هذه معرفته تعالى، وهي اعتمادُه على التعليم والتلقي من

شيخ يوجهه في طريقه إلى هذه المعرفة وهو أستاذه أبو علي الدقاق (ت ٤٠٥ هـ) فلقد كانت معرفته كسبية، وما يؤكد ذلك أن القشيري قد دخل التصوف بعدما جالس أستاذه أبا علي الدقاق، فالقشيري لم يكن يبحث عن أي شيء له صلة بالتصوف سواء أكان معرفة أو ولاية، بل كان يدرس الحساب وأوقعته الصدفة، بل العناية الإلهية في مجلس أبي علي الدقاق<sup>(٣٧)</sup>.

وزادت هذه الرحمة والعناية الإلهية- اختيار الله للقشيري- بأن قذف الله في قلبه حُبَّ الشيخ فعزم على ألا يفارق مجلسه رغم أن الشيخ طلب منه أن يرجع إلى مجلس العلوم العقلية والنقلية كي يزداد ثقافة منها، لكن القشيري لم يستطع الافتراق عن الشيخ، وهنا تظهر عناية الله ورحمته بالقشيري<sup>(٣٨)</sup>.

وإذا عدنا لنتتبع دورَ الشيخ كوسيلة من وسائل الوصول للمعرفة وجدناه- القشيري- يؤكد على ضرورة سلوك الطريق على يد شيخ يُوثق به قد سلك الطريق قبله وتجرّد لذلك؛ وذلك لأنه- الشيخ- يساعده ويسهل عليه السلوك في الطريق إلى الله، ويجعل وصوله أسرع؛ لأنه دائماً ما يعطيه من همته؛ وذلك على العكس من التلمذ على يد من لا يوثق في علمه بهذا الطريق فيؤدي به في النهاية إلى الحجب؛ فإنه قد يصل مرّةً ولكن بعد حين وفترة أكبر بكثير من الفترة التي يصل بها من تتلمذ على يد شيخ يوثق به<sup>(٣٩)</sup>.

ويبدأ الشيخ في تأديب مُريده من خلال ما يطلبه منه ويفرضه عليه ويأمره به؛ فنجدّه يذهب إلى أنه من الواجب على العبد إذا اختار هذا الطريقَ وبدأه أن يتجرّد من الدنيا ويزهد فيها وأن يكون عاملاً بالفرائض التي فرضها الله تعالى عليه متمسكاً بها توحيداً وشرعية، على حد قوله<sup>(٤٠)</sup>.

وفي تلك الكلمات السابقة أكبر دليل للردّ على أعداء التصوف في عدم اهتمامهم بالفرائض والسنن الواجبة، ومن شدّة تأكيده عليها أخذ يُعيدها مراراً وتكراراً، ويؤكد أن الشيخ أول ما يوصي به مريده ويفرضه عليه هو "اتباع

الطاعات، وبخاصة أداء الفرائض والسنن وركعتي الضحى، وبعد كل وضوء ركعتين" ثم ينتقل من بعد التزامه بالفرائض والسنن إلى الذكر<sup>(٤١)</sup>.

ولأهمية الالتزام بالشريعة وقبل الانتقال للحديث عن الذكر والمجاهدات الأخرى نبين تأكيد القشيري على ضرورة الالتزام بالشريعة وصون العقيدة عن النقصان، فوضع الشريعة في موضعها الصحيح والالتزام بها وبتمامها، من أول وأهم الخطوات التي تصل بالعبد إلى المعرفة التامة بالله<sup>(٤٢)</sup>.

ويكمل الشيخ اتفاه مع المرید فيشترط عليه أن يختار الفقر على الغنى وأن يفضل غيره الغنى، وأن يختار الذل على العز، وأن يختار الله سبحانه وتعالى على كل شيء، وأن لا يأكل إلا ما يُعِينُهُ على الحياة، وهو من ضمن الرياضات الروحية- الجوع- حتى وإن أكل غيره وأسرف في الأكل<sup>(٤٣)</sup>.

ويزيد القشيري في الشروط التي يجب على الشيخ أن يفرضها على المرید؛ فيذهب إلى أن من الواجب على المرید ألا يقول ما لا يعنيه وإن قال غيره، وألا يؤثر الرخاء وإن أثر غيره، والسبب في إثارة للصمت على الكلام هو أن الصمت سمة أصحاب المجاهدات؛ وذلك لعلمهم ما في الكلام من آفات، وما يثيره من غرائز في النفس من محبة إظهار المدح من الغير، والميل إلى الإطراء من الغير بحسن النطق وحلاوة الحديث، وغيرها من الآفات التي يحاول أصحاب المجاهدات والرياضات تجنبها والابتعاد عنها، لما فيها من تهذيب للنفس وقهر لها<sup>(٤٤)</sup>. فالمجاهدة من أهم الوسائل التي لا تبارح المرید في أي مرحلة من مراحل سلوكه للطريق منذ البداية للنهاية، لكن مع اختلاف ما يجاهده في نفسه، وهذه الوسيلة- المجاهدة- تظهر الفروق الفردية بين المریدين كل على قدر همته ومجاهدته.

وبداية المجاهدة عند القشيري بعد قبول شروط الشيخ عليه- كما ذكرنا سابقاً- وتكون أثناء الذكر بأن يواظب عليه، ويستمر فيه دون انقطاع مع ملازمة الصدق

والإخلاص أثناء الذكر، ومن هذه المجاهدات أيضًا مطاردة النوم والغفلة- السهر- فكان القشيري يقوم بها حتى لا يغيب عن ما هو فيه من الذكر لحظة واحدة، وكان يقوم بالعديد من الحيل لمقاومة هذا النوم، كي لا يغيب عن لذة ذكره لحظة واحدة<sup>(٤٥)</sup>.

فالذكر عند القشيري وسيلة من وسائل الوصول للمعرفة فنجده قد ربط هذا الذكر بالشيخ أيضًا؛ وذلك من خلال قبول المرید للشروط التي فرضها عليه شيخه؛ ومن ثم يتقبل الشيخ المرید ويقول له: "قبلتك لأوصلك إلى طريق الله تعالى بقدر ما تعرف، وأني لن أبخل عليك بقدر ما عرفته"<sup>(٤٦)</sup>.

ومن ثم يبدأ مهمته بتعريفه للمرید ونصحه وإرشاده بأن يرى أن جميع أحواله من الله، وأن أي توفيق يصيبه فهو منه تعالى، وهذه الوصية غاية الأهمية قبل أن يلقنه الأذكار؛ وذلك حتى لا ينخدع المرید ويفتن بما يشاهده من أحوال أثناء ذكره، ويقول: هذه مني أنا، أو بفضل أذكاري<sup>(٤٧)</sup>.

وهذا الذكر يبدأ به المرید طريقه يكون بكلمة (الله.. الله) فيوصي الشيخ مریده بألا ينشغل عن الذكر طرفة عين<sup>(٤٨)</sup> ويتوافق كلام القشيري في ذلك مع قول النبي- صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت))<sup>(٤٩)</sup>، فالصدق في الذكر يوصل صاحبه إلى الغيبة عن جميع الأشياء، ويتوقف ذلك كما ذكرنا سابقًا على توفيق الله إياه في تقوية إرادته<sup>(٥٠)</sup>.

ويتدرج المرید في الذكر وفي الأحوال التي يترقى فيها في سلم المعرفة بقدر إخلاصه وصدقه في ذكره؛ إلى أن يسلب فيها لسانه وسمعَه وبصره، ويبقى له شهادة القلب؛ بأن يجد الذكر بقلبه لا بلسانه حتى أنه يجد الكون كله يشترك معه في الذكر؛ وهنا أوصله الذكر إلى ترقى القلب؛ ليصبح محلاً للمعرفة، وهذه وسيلة أخرى للمعرفة<sup>(٥١)</sup>.

والقلب الذاكر يأتي من قوة قمة المرید إذا واطب على الذكر وحرص عليه بكل جوارحه؛ فإذا فني الذاكر في ذكر اللسان انقطع عنه- الفناء في المذكور- وعندئذ لا يجد العبد من نفسه شيئاً لا من السمع ولا من البصر إلا شيئاً ضعيفاً، ويصير كل ذلك بعدئذ إلى القلب فيسمع من قلبه الذكر، ووقتها يصلح القلب لأن يكون محلاً للمعرفة وتلقي الأذكار<sup>(٥٢)</sup>.

وأوضح القشيري ما قد يواجه المریدین المبتدئين من عقبات ومتاعب؛ فكلما اجتهد المرید كلما تباعد عنه مقصوده، فهي سنة الله تعالى يجريها مع عباده؛ ولكن بعد ذلك يُمُنُّ الله عليه بفضلته ونعمته، ويظهر له الكشف بعد يأس- المعرفة- وعلّة ذلك ألا يتوهم المرید أنه قد نال شيئاً بنفسه، وإنما بفضل الله تعالى؛ لأن الأمر لو كان بيد المرید ما جاهد ولا اجتهد ليصل إلى مطلوبه، بل لوصل إليه دون عناء، أما تأخر المراد والمقصود دليل على أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، متى يشاء<sup>(٥٣)</sup>.

ولأن لكل شيء غاية وهو نهاية الشيء، والمراد منه والهدف من بدايته والدخول فيه؛ فلا بد وأن يكون للذكر غايته، وللعلم غايته، وللمعرفة غايتها، فإذا ما تتبعنا غاية الذكر وامتداده عنده وجدناه الغيبة عن جميع الأشياء؛ مع الجزم أن ذلك لا يتم إلا بتوفيق الله للعبد، ثم ينتقل بالغبية بالذكر عن نفسه، ثم يصل إلى أن يغيب بالذكر عن الذكر، ولا يزال يرتقي في كل غيبة وحضور إلى رتبة أخرى أعلى وأجل حتى يفني العبد عن كل هذه الأحوال، ويسمي هذا الحال بحال البقاء، إذن فغاية الذكر الوصول لحال الفناء<sup>(٥٤)</sup>.

وإذا صدق العبد في ذكره لله وأخلص وكان من المختارين من قبل الله لتولّتهم رحمته وفتح باب المعرفة لهم، ووقفهم الله للانتقال لأحوال كثيرة أثناء الذكر، وهذه الأحوال تفتح لهم أبواب شتى من المعرفة؛ فنجد حال الشرب الذي أشار إليه القشيري بأنه عبارة عن حلاوة في فم العبد وحلقه، يجدها العبد أثناء ذكره، ورغم

أن هذه الحالة يهرب منها الكثير؛ لأنها أصعب وأقرب من الموت؛ إلا أنها تفتح لهم قوى في المعرفة كثيرة، وهي عينها المعرفة التي أشار إليها أبو علي الدقاق (ت ٤٠٥هـ) أَنَّ العبد وقتها تقوى معرفته، ويحتد بصره وبصيرته حتى كأنه يسمع وقع أقدام النمل<sup>(٥٥)</sup>.

ونستنتج مما سبق أَنَّ الاستمرار والدوام على الذكر والصدق فيه إذا أحيط بعناية مسبقة من الله كانت نهايته المعرفة القوية للكون الظاهر والباطن من حول العبد، وهي المعرفة عن الله وبالله.

وأداة هذه المعرفة القلب السليم النقي الصافي نتيجة لجميع المجاهدات التي مر بها في طريقه إلى الله- المجاهدات السابق ذكرها- فالقلب لا يحيا إلا بذبح النفس، والنفس لا تذبح إلا بالمجاهدات<sup>(٥٦)</sup>.

والقلب الحي هو وحده الصالح لتلقي المكاشفات، فمن أراد لقلبه أن يصفو وجب عليه التخلص من جميع التمنيات، وقطع جميع العلائق التي تحجبه عن تلقي النور الإلهي الذي هو السبيل الوحيد لتلقي المشاهدات<sup>(٥٧)</sup>.

يذهب القشيري أن هذا النور الإلهي منه تعالى هو نور له درجات، ينتقل خلالها العبد حسب درجات يقينه ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] فكلما زاد يقينه ارتقى إلى أعلى الدرجات، فنور اللوائح يكون بنجوم العلم، أي: يسير العبد في هذه الدرجة بنور وبرهان العلم، ثم يترقى إلى مستوى الفهم، ثم يرتقي إلى نور المحاضرة ببعض من اليقين، ثم يكشفهم الله بنور صفاته، ثم نور المشاهدة بظهور الذات، وأعلى المكاشفات المكاشفة بأنوار الصمدية بحقائق التوحيد، وعندها يفنى العبد فلا وجد ولا فقد، ولا قرب ولا بعد، فلا يرى في الوجود أجمع إلا الواحد القهار<sup>(٥٨)</sup>.

والمكاشفات عند القشيري نوعان: مكاشفة جلال ومكاشفة جمال، فمن كاشفه تعالى بنعت الألوهية أشهده جلاله، فيكون حاله محو، ومن يكاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فيكون حاله صحو<sup>(٥٩)</sup>.

ويلزم لمن من الله عليه بالمكاشفات أن يكون صاحب فراسة فتسهل عليه الوقوف عليها وفهمها ومعرفتها- المكاشفات- ويطلق القشيري على من من الله عليه بالمشاهدات بالبصير نسبه لقوله تعالى ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]. فالبصير: "هو من يشهد من الحق أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين"<sup>(٦٠)</sup>. وذلك مخالف لما يراه بعض المستشرقين الذين يذهبون إلى أن البصيرة لا يُعتد بها حتى أنها في نظرهم فكرة غير حقيقية، وأن ما يؤكد صحة أمر ما هو الموقف العلمي، فهو حتمي من وجهة نظره؛ أما البصيرة فغير مجربة وغير مضمونة ولا يعتمد عليها<sup>(٦١)</sup>. ولكن عند القشيري فالوصول لهذه الدرجة تجعل الصوفي صاحب البصيرة يشهد الغائب عن عينه وكأنه حاضر أمامه، والواجب عليه في هذه الدرجة أن لا يسمع هواجس النفس ولا وساوس الشيطان، فجميع ما يسمعه يجب عرضه على الشرع، فإن خالفه يرفضه ولا يقبل به، ثم ينتقل إلى ما هو أعلى، أن يسمع خواطر قليلة من التعريف، وأعلى المشاهدات أن يكشف العبد بخطاب من الحق سرّاً<sup>(٦٢)</sup>.

وهنا تضمحل المعرفة في التيه والحيرة وعدم التمييز، فتغيب عن العبد هذه المعرفة اللطيفة، ويرتفع التمييز ويصل إلى حال جمع الجمع، وهو أقصى درجات المعرفة أن يصل إلى الجهل في المعرفة ولا يستطيع أن يعبر عما هو فيه، وتعجز العبارة عن الإشارة لما رأى أو سمع أو عرف، فيأتي الجهل وتأتي الحيرة، فهنا يكون العجز عن المعرفة هو المعرفة ذاتها، فيعلم العبد أنه عبد وأن له ربّاً<sup>(٦٣)</sup>.

وهي عينها درجة شهود الأحدية وإسقاط التدبير كما يطلق عليها ابن عطاء الله السكندري (ت ٦٥٨هـ) فالواصل لهذه الدرجة من المعرفة لا يرى أعماله وأحواله منسوبة إلى نفسه وإرادته، وذلك لغيبته في شهود الأحدية، فالإرادة والتدبير هي له وحدَه تعالى، وحين تحقق المشاهدون بمواجهة الأحدية فقد أصبحوا لا شيء بدون الله، وحينئذ لا يكون لهم مراد مع مراد الله، لانفراده بالوجود الحقيقي، فلا يكون له مع هذا الشهود استطاعة التدبير منه لنفسه<sup>(٦٤)</sup>.

فبمقدار تخلصه من نفسه، ومجاهدته لها، يتحقق العبد بالمعرفة في أتم صورها، ولا يكون ذلك إلا والعبد في حال الفناء؛ حين يفنى العبد عن نفسه تمامًا ويبقى بالله فبمقدار أجنيته عن نفسه تحصل معرفته لربه<sup>(٦٥)</sup>.

فنهاية الطريق والتحقق بالمعرفة عند الصوفية يرتبط بالفناء كعلاقة طردية بحيث: كلما زادت المعرفة تحقق العبد العارف بالفناء، وذلك من خلال معرفته لحقيقة الأشياء من حوله، ثم حقيقة نفسه فيضمحل ذلك كله- أمام تحققه في معرفة الله فيفنى عن الجميع- الكون من حوله ونفسه- ويبقى بالله سبحانه وتعالى فانيًا عما سوى الله.

### **علاقة السماع بالمعرفة:**

يعتبر السماع رياضة روحية من خلالها يتحقق الصوفي عن طريقها بالوصول إلى معرفة الله وشهود الحقائق والأسرار الإلهية وبه يجاهد الإنسان نفسه، ومن ثم يسمع ويستجيب للأمر الإلهي بظاهره وباطنه، فقد آمن القشيري بأن الأثر الذي يحدثه السماع في نفس الإنسان قلبه، ينعكس- بالتبعية- على الجوارح، ومن ثم يرقى في الطريق الروحي إلى الله، فالسماع عنده هو: "سماع الأشعار بالألحان الطيبة والنغمات المستلذة إذا لم يعتقد المستمع محظورًا، ولم يسمع عن مذموم في الشرع، ولم يتجر في زمام هواه، ولم ينخرط في سلك لهو"<sup>(٦٦)</sup>.



ولهذا أدرك القشيري أن السماع يجعل الإنسان في سكونة وانسجام بين ما تريده النفس من شهوات وما يطلب القلب من المعارف والعلوم. وهذا الانسجام الذي يسببه السماع ينعكس على الجوارح فتتذوق الانسجام الذي أوجده الله في الوجود. وهذا لأن السماع فيه من "استلذاذ واشتياقها إلى الأصوات الطيبة واسترواحها إليها مما لا يمكن جحوده"<sup>(٦٧)</sup>. وهذا الانسجام الذي يعم الإنسان يجعل نفسه لا تستجيب لأهوائها، وإنما تستلذ لسماع أمر الله فيها.

وهنا يمنعها السماع- في تصور القشيري- من المعصية ويحققها بالمجاهدة والتزكية، ومن ثم تشرق المعارف والعلوم على القلب حيث "لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس مينة وقلب حي، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة، وقلبه حي بنور الموافقة"<sup>(٦٨)</sup> ونستنتج من ذلك أن نفس المتحقق بالسماع هي النفس التي خرجت عن شهواتها، وماتت عن معاصيها، وتأهلت بالرياضة للتحقق بالمعرفة.

ولمزيد من الإيضاح لمفهوم السماع عند القشيري، يجب أن نتساءل: ما هي الآثار التي يحدثها السماع في باطن الإنسان وظاهره، وتؤثر في طريقه الروحي مع الله؟

يؤكد القشيري على أن العبد لا يتحقق بالترقي في الطريق الروحي إلى الله إلا بالرياضة نفسه من الشهوات، ومن ثم يتأهل لتلقي واردة الحق من الأسرار والمعارف. وهذا لا يتحقق- في رأي القشيري- إلا بالسماع. فبالسماع يتخلص من "الأسباب التي علقت على العبد فشغله ذلك عن الله عز وجل"<sup>(٦٩)</sup>. لأن السماع الصحيح- في رأي القشيري- هو الذي يبيحه الشرع والدين؛ ومن ثم "يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات، وتذكر ما أعد الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات ويحمله على التحرز من الزلات، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات مستحب في الدين مختار في الشرع"<sup>(٧٠)</sup>.

وليؤكد القشيري مقصده استدلال بما ورد في الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨]. ليؤكد على أن كلمة: (القول) في الآية السابقة تقتضى "التعميم والاستغراق، والدليل عليه مدحهم باتباع الأحسن"<sup>(٧١)</sup>. وبهذا يكون السماع في رأي القشيري هو الرياضة الروحية التي تثبت النفس والقلب والجوارح على طريق الحق. فبالرياضة الروحية تخرج النفس عن طباعها الدنيوية وتمنح الإنسان حقيقة المراد له في الدنيا والآخرة "رياضة الأدب: الخروج من طبع النفوسية، ورياضة الطلب: الخروج من طبع المريديّة، ورياضة المطالبة: بصحة المراد به"<sup>(٧٢)</sup>.

وليدل القشيري على حقيقة فهمه للأثر الذي يحدثه السماع في النفس، استدلال بما ورد عن ممشاد الدينوري (ت ٢٩٩هـ) الذي قال: "لو جمع ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي ولا شفى بعض ما بي"<sup>(٧٣)</sup>. وبهذا يتبين لنا أن استجابة الصوفي لا تكون إلا على قدر ما أعد في نفسه، فلرياضات الروحية آثار بالغة في تجريد الظاهر والباطن من العوائق الوهمية والعلائق النفسية<sup>(٧٤)</sup>.

فطهارة القلب لا تتأتى إلا بعد تزكية النفس؛ لأن مفتاح الطريق يقوم في الأصل على الرياضات والمجاهدات، وبذلك تنكشف للإنسان حقائق الغيوب، ومن ثم يرقى العبد من الموجود ليتحقق بالمعبود<sup>(٧٥)</sup>.

فعندما ينشغل السالك بالرياضة نفسه يتحقق بما هو أهل له من المعرفة والكشف. تلك المعرفة هي الأثر الباطني الأهم الذي يحدثه السماع في السالك. وبذلك يتبين لنا أن القشيري قد عد المعرفة هي ثمرة التحقق بالسماع. ولهذا صرح أن "من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة"<sup>(٧٦)</sup>.

ونستنتج من ذلك أن أثر السماع يظهر على باطن السالك بالتركيز والمحبة والشوق إلى الله ومعرفته. وفي هذا ذكر القشيري أن السماع هو "حال يبدى الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق"<sup>(٧٧)</sup>.

فلا يتحقق العبد بالسماع إلا إذا تحقق بإحراق شهوات نفسه وتحقق بالمعارف الروحية والأسرار الربانية. والقشيري في هذا يتفق مع الصوفية فقد كان مفهوم السماع عندهم أنه: "استجمام من تعب الوقت واستحضار الأسرار لذوي الأشغال"<sup>(٧٨)</sup>. وهنا تظهر حقيقة السماع- عند القشيري- كرياضة روحية تؤهل الصوفي لتحقيق بالمعرفة. فلا يجتمع في قلب السالك حب النفس مع حب الله فلا يكون وجود الحق، إلا بعد خمود البشرية؛ لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة<sup>(٧٩)</sup>.

ومن ثم فالمحقق في السماع الذي وصل إلى درجة الربانية هو من لا ينشغل بجسده ونفسه وروحه إلا بخالقه. لأن من كملت معرفته كان سامعاً بالله، وناطقاً بالله. وهذا هو غذاء الروح كما صرح القشيري "فالسماع لطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة"<sup>(٨٠)</sup>. وإذا كانت الروح لا تحقق مطالبها إلا بالمعرفة بالله، فإن السماع هو قوت الروح وغذاؤها فالسماع: سفير الحق بما أظهره من الحق.. وداعي الغيب عند الريب.. وقوت الروح بقوة اللوح<sup>(٨١)</sup>.

وهكذا يتضح لنا أن السماع من الحق هو أحد وسائل معرفة الحق والعلم به عند القشيري. وهذا ما أقر به أبو طالب (ت ٣٨٦هـ) المكي- السابق عليه أيضاً فالله سبحانه قد جعل للمؤمنين سمعاً وبصراً وقلباً ليؤخذ العلم منها ويوجد بها. وقد استدل في ذلك بالآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] فلولا أن العلم يقع بالسمع والبصر والقلب ما نهى عما لا يعلم هذه الأشياء، ففي النهي قفو ما لا يعلم هذه الأوساط ويتبعه إثبات العلم. فكل مؤمن هو ذو سمع وبصر وقلب فهو عالم

بفضل الله ورحمته. كما جعل الحق السمع المكين – أي سماع القلب كما يرى أبو طالب المكي (ت ٣٨٦هـ) – هو مفتاح التقوى والقول السديد<sup>(٨٢)</sup>.

وهكذا يتبين لنا أن القشيري يربط السماع بالمعرفة إذ إن: "السماع: فهم ما كوشف به من البيان، والارتفاع عن الوهم إلى روح العيان"<sup>(٨٣)</sup>.

والمعرفة هي: "زوال البرهان لكمال العيان"<sup>(٨٤)</sup>، ومن ثم فالمعرفة – في رأي القشيري – كشف لا يدركه إلا العارف الرباني، الذي طاق روحه – بالسماع – في ميادين المعرفة، فتحقق بالسماع الحق؛ عم الحق وبالحق. كما يمكننا القول من خلال ما سبق أن السماع عند القشيري يعتبر أحد الرياضات الروحية التي يترقى الصوفي بها إلى الكمال في المعرفة بالله شهودًا وكشفًا.

بعد الانتهاء من مناقشة موضوع المعرفة عند القشيري، توصل الباحث إلى رصد أهم النتائج.

موضوع المعرفة عنده هو معرفة الله، ومعرفة صفاته وأسمائه والعلم بما يليق بكمال ذاته سبحانه. والعقل ليس له أي دور في تلقي هذه المعرفة؛ لأنه لا طاقة له في أن يجول في ميدان الألوهية، ويصعب عليه معرفتها المعرفة التي تليق بذات الله وكمال صفاته؛ فمعرفة الله تعالى لا تكون إلا منه؛ لأنه سبحانه هو الذي يعرفهم نفسه وصفاته، فلولا أن الله تعرف إليهم لما عرفوه، هذه المعرفة لا تكون إلا عن طريق تجليه لقلوبهم من خلال ما يكشفهم به من أسمائه وصفاته وللوصول إلى المعرفة عنده طريقان وهما: الكسب والوهب.

**المعرفة عنده نوعان**، هما معرفة عقلية ومنهجها الاستدلال ومعرفة كشفية ومنهجها الذوق الوجداني المباشر.

معرفة الله هي طاعته وترك معصيته، والعمل بالكتاب والسنة وترك معصيته وعدم منازعته والامتثال للأوامر والانتهاز عن النواهي، والرضا بالقضاء، وترك المنازعة، والفناء عن النفس وصفاتها، وعن الأخلاق الذميمة، والانتقاع إلى الله،

والاجتهاد في عبادته، والصدق في معاملاته، والرضا بقضائه، ومعرفته بأسمائه وصفاته، ومناجاته في السر والعلن.

### القلب عند القشيري هو محل المعرفة.

كما انه قسم المعرفة إلى ثلاث درجات: معرفة عقلية وهي معرفة العوام، معرفة قلبية وهي معرفة الخواص، معرفة كشفية وهي معرفة خواص الخواص. كما انه ربط الشريعة بالحقيقة ومن ثم فلا بد للصوفي من العمل بالكتاب والسنة أمرًا ونهيًا وترك المعاصي والزلات، وعدم إسقاط التكاليف الفرائض لا تسقط عن أحد لأي حال من الأحوال وتحت أي ظرف من الظروف، ومن ثم فلا عذر فيه لإسقاط الفرائض تحت أي مسمى.

ل للوصول إلى معرفة الله وسائل لا بد منها تتمثل في: طاعة الله والعمل بالكتاب والسنة أمرًا ونهيًا والامتثال للأوامر والانتهاج عن النواهي وأداء الفرائض والإكثار من النوافل وترك معصيته والرضا بقضائه وقدره، وترك منازعته واستدامة ذكر الله باللسان والقلب وبالعقل.

كما أنه يرى أن التحقق بالمعرفة الإلهية يتطلب وسائل أخرى: طلب العلم والإمام بالعلوم العقلية والنقلية، التتلمذ على يد شيخ يوثق به؛ لأنه سيجعل وصوله أسرع وأقوى، كما أنه سيسهل عليه سلوك الطريق، وسيعطيه من همته، الزهد في الدنيا والتجرد عنها، قلة الكلام، اختيار الفقر والذل، قلة الأكل، السماع هو الذي يساعد على مجاهدة النفس وتصفيتها من العلائق والشهوات، واستجابتها للأمر الإلهي والرغبة في الطاعة والبعد عن المعصية، وصفاء الواردات والوصول إلى معرفة الله.

وقسم القشيري العلماء إلى أربعة أقسام وجعل لكل قسم من هذه الأقسام دور يقوم به، الخزنة وهم: حفاظ القرآن وأحاديث الرسول وسنته، علماء الأصول، وهم: حراس العقيدة والمدافعون عنها، الفقهاء وهم المختصون بعلم المعاملات والفتية،

أهل المعرفة، وهم أصحاب الحقائق. وكذلك جعل العارفين على أربعة أقسام وهم:  
العابد الزاهد، الذاكر الفاني، العارف المربي، العارف الفاني.

### هوامش البحث:

١. (سعيد) هيام فرج محمد، الفكر الصوفي عند الإمام القشيري ومصادره عند السراج الطوسي وأبي طالب المكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، ٢٠١٠ م، ص ١٧٥.
٢. نفس المرجع السابق، ص ١٧٥.
٣. (حجازي) سامي عفيفي، دراسات في التصوف والأخلاق، ط١، دار الطباعة المحمدية، القاهرة- مصر، ١٩٩٨م، ص ٤٣٩ و ٤٤٠.
٤. (القشيري) عبد الكريم بن هوازن، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، ج ٢، ط ٢، دار المعارف، القاهرة ٢٠١٣م، ص ٤١٦، انظر: (شحاتة) محمد محمود، التصوف الإسلامي منظور تحليلي من خلال الرواد، د.ط، دن، ١٩٩٢م، ص ٤١٦.
٥. نفس المصدر السابق ذكره، ص ٥٢٣.
٦. (الكلاباذي) أبي بكر محمد بن إسحق، التعرف لمذهب أهل التصوف، ط١، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، سنة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، ص ٦٩.
٧. القرآن الكريم، سورة المائدة، آية ٥٦.
٨. القرآن الكريم، سورة الأعراف، آية ١٩٦.
٩. ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن، هامش على كتاب لطائف المنن والأخلاق لعبد الوهاب الشعراني، المطبعة الميمنية ١٣٢١هـ، ص ٨٣-٨٤.
١٠. (ماسينيون وعبد الرازق) التصوف، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، ط١، دار الكتاب اللبناني (مكتبة المدرسة) للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٩٨٤م، ص ٨٥ و ٨٦.
١١. (الجندي) محمد علي وآخرون، محاضرات في التصوف والفكر الإسلامي الحديث، ج ١ التصوف، د.ط، دن، ٢٠٠٢م، ص ٢٢١.
١٢. (القشيري) التحبير في التذكير، حققه وقدم له وعلق عليه إبراهيم بسيوني، د.ط.عالم الفكر، القاهرة- مصر، ١٩٩٣م- ١٤١٤هـ، ص ١١٤- شرح أسماء الله الحسنى، لنفس

- المؤلف، التحقيق أحمد عبد المنعم عبد السلام الحلواني، ط ٢، دار أزال لطباعة النشر، بيروت- لبنان، ١٩٨٦م- ١٤٠٦هـ ص ١٩٦.
١٣. (عبد الحميد) فاطمة فؤاد، الولاية عند الصوفية (القشيري- ابن عربي) مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، نصف سنوية، العدد العشرون، الجزء الثاني، يناير ٢٠٠٩م، ص ٩٦٧-٩٦٨.
١٤. (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٤١٨.
١٥. (عبد الحميد) الولاية عند الصوفية (القشيري- ابن عربي) العدد العشرون، الجزء الثاني، ص ٩٦٨.
١٦. (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٤١٩.
١٧. نفس المصدر السابق ذكره، ص ٤١٩.
١٨. (عبد الحميد) الولاية عند الصوفية (القشيري- ابن عربي) العدد العشرون، الجزء الثاني، ص ٩٦٩.
١٩. (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٤١٩.
٢٠. نفس المصدر السابق ذكره، ص ٤١٩.
٢١. (القشيري)، الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٤١٩.
٢٢. (الرفاعي) أحمد، البرهان المؤيد، د.ط، د.ت، ص ١٠١.
٢٣. القرآن الكريم، سور الأحزاب، الآية ٣٨.
٢٤. (سلامة) محمود، الولاية الصوفية، د.ط، بدون ناشر، ٢٠١٠م، ص ٧٦، انظر (الجليند) محمد السيد، من قضايا التصوف في ضوء الكتاب والسنة، ط ٤، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ٢٠٠١م، ص ١٥١ و ١٥٢.
٢٥. (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٥٢٤.
٢٦. (الكلاباذي) التعرف لمذهب أهل التصوف، ط ١، ص ٦٩.
٢٧. (ابن تيمية) أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، جامع الرسائل والمسائل، المجموعة الأولى، (رسالة شرح كلمات من فتوح الغيب) تحقيق محمد رشاد سالم، ط ٢، دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع، جدة- المملكة العربية السعودية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م، ص ٢٦٦.
٢٨. (سلامة) الولاية الصوفية، ص ٧٧، انظر الولاية، عبد العليم محمد محمود، ط ٢، شركة الشمرلي للطبع والنشر، القاهرة- مصر، د.ن، ص ١٥.
٢٩. (عبد الله) أمام حنفي سيد، الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج ٢، ط ٢، الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ٢٠٠٩، ١٤٣٠ هـ، ص ٧١٨-٧١٩.

٣٠. (القشيري) لطائف الإشارات، تحقيق وتعليق إبراهيم بسيوني، ج١، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، ٢٠٠٨م، ص٢٥٣.
٣١. (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج١، ط٢، ص٣٢٦.
٣٢. القرآن الكريم، سورة الإسراء، آية ٩٣.
٣٣. القرآن الكريم، سورة الكهف، آية ١١٠.
٣٤. القرآن الكريم، سورة النمل، الآية ١١.
٣٥. القرآن الكريم، سورة عبس، الآية ١-٣.
٣٦. (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج١، ط٢، ص٣٢٧-٣٢٨.
٣٧. القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية ٤٣.
٣٨. (سعيد) الفكر الصوفي عند الإمام القشيري ومصادره عند السراج الطوسي وأبي طالب المكي، ص ١٨٠-١٨١.
٣٩. (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج١، ط٢، ص٣٢٩.
٤٠. (سلامة) الولاية الصوفية، ط٢، ص ٧٩-٨٠.
٤١. (القشيري) الرسالة القشيرية، ج٢، ط٢، ص ٥٢٥.
٤٢. نفس المصدر السابق ذكره ص ٤١٨.
٤٣. (الجزار) أحمد محمود إسماعيل، المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، د.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية- مصر، ٢٠٠٠م، ص٧٨.
٤٤. (القشيري) الرسالة القشيرية، ج٢، ط٢، ص ٤١٨-٤١٩.
٤٥. نفس المصدر السابق ذكره ص ٤٢٠.
٤٦. (الجندي) محاضرات في التصوف والفكر الإسلامي الحديث، د.ط، ص ٢٢٢.
٤٧. القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية ٧٠.
٤٨. القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية ٧٣.
٤٩. (الجاللي) الطنطاوي فراج، التصوف الإسلامي (قضايا ومناقشات) د.ط، دن، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، ٢٥٥.
٥٠. (عفيفي) أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، د، ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، ٢٠١٣م، من ص٣٠٨.
٥١. (حجازي) دراسات في التصوف والأخلاق، ط١، ص ٤٤٢-٤٤٣.
٥٢. (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج٢، ط٢، ص ٧١١.
٥٣. (القشيري)، الرسالة القشيرية، ج٢، ط٢، ص ٥٢٢-٥٢٣، - انظر لطائف الإشارات ج٣، ط٤، ص ٣٩.



- ٥٤ . (الكلاباذي) التعرف لمذهب أهل التصوف، ط١، ص ٦٤.
- ٥٥ . (نيكلسون) رينولد، الصوفية في الإسلام، ترجمه وعلق عليه نور الدين شريفة، د.ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة- مصر، ٢٠١٢، ص ١٢٤.
- ٥٦ . (الجاللي) التصوف الإسلامي (قضايا ومناقشات) د.ط، ص ٢٥٧.
- ٥٧ . (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج ٢، ط ٢، ص ٧١٢.
- ٥٨ . نفس المرجع السابق ذكره، ص ٧١٥.
- ٥٩ . (مذكور) عبد الحميد عبد المنعم، نظرات في التصوف الإسلامي، د.ط، دار الهاني للطباعة والنشر، ٢٠٠١م، ص ١٩٣.
- ٦٠ . القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآية ٩٠.
- ٦١ . (الجاللي) التصوف الإسلامي قضايا ومناقشات، د.ط، ص ٢٤٦- ٢٤٧.
- ٦٢ . نفس المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٧.
- ٦٣ . (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٥٢٢.
- ٦٤ . (خليفة) عبد اللطيف إبراهيم، من قضايا التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة، د.ط، دن، ٢٠٠٤م، ص ١٧٩- ١٨٠.
- ٦٥ . (الهجويري) كشف المحجوب، ترجمة محمود أحمد ماضي أبو العزائم، ضبطه وحققه أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق على وهبة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م، ص ١٦٧.
- ٦٦ . (عبد الحميد) الولاية عند الصوفية (القشيري- ابن عربي) العدد العشرون، الجزء الثاني، ص ٩٨٥ و ٩٨٦.
- ٦٧ . نفس المرجع السابق ذكره ص ٩٨٤.
- ٦٨ . (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج ٢، ط ٢، ص ٧١٧.
- ٦٩ . (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٥٢٤.
- ٧٠ . (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج ٢، ط ٢، ص ٧١٧.
- ٧١ . (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٥٢٥.
- ٧٢ . نفس المصدر السابق ذكره، ص ٤٢٠.
- ٧٣ . (عبد الله) الآراء الكلامية والصوفية عند القشيري، ج ٢، ط ٢، ص ٧١٨.
- ٧٤ . (القشيري) الرسالة القشيرية، ج ٢، ط ٢، ص ٥٢٤.
- ٧٥ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٣.
- ٧٦ . القرآن الكريم، سورة الزمر، الآية ١٨.
- ٧٧ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٣.

- ٧٨ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٣ .  
٧٩ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٣ .  
٨٠ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٣ .  
٨١ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٤ .  
٨٢ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٤ .  
٨٣ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٤ .  
٨٤ . نفس المرجع السابق ذكره، ص: ٤ .